

في أفق السياسة العالمية

مشاكل البلقان

تناول مستر بيثن وزير خارجية إنجلترا فيما تناوله من الشؤون الخارجية في بيانه الأخير الذي ألقاه في مجلس العموم في أوائل شهر يونيه ، مسألة تريسته ، وقال بشأنها إن أخشى ما يخشاه « أن تصبح تريسته بيداً تحرك أيدي اللاعين على رقعة الشطرنج الدولية » . ولكن هل بقي إقليم أو ميناء في شرقي أوروبا أو في منطقة البلقان ليس للدول فيه أصعب ظاهرة أو خفية تحرك سياسته عيناً أو يساراً وفق الآراء والمبادئ التي تدين بها الدولة التي تحركه ؟

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ، ففرقت بينهم في الجنس واللغة والثقافة والمذهب الديني ، كما فرقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التي تقطع شبه الجزيرة طولاً وعرضاً ، وجعلت المواصلات فيما بين البلاد أمراً بالغاً منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البلاد التي جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة ! وإذا كان معظم سكان البلقان ينتمون إلى العنصر السلافي ، فإن في هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل ، فمنهم الأتراك والأرثوذكس أو الألبانيون والإغريق والمقدونيون والرومانيون والصرب والكروات والسلوفين والبلغار ، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ، ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم ؛ فأودى ذلك نهائياً بطمأنينتها وأمنها ، وجعل منها ، كما يقولون ، برميلاً جافاً من البارود يوشك في كل لحظة أن ينفجر ، فلا تقتصر ناره على الأرض المجاورة ، بل تتعدى الحدود وتتصلب ألسنتها بالمحيط الدولي ، فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البارود في صيف سنة ١٩١٤ في سراييفو إحدى مدن الصرب ، فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت في ربيع

سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني في يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام ، وشرّد مليكها وأسرتة ، ووضع تاج ألبانيا على رأس ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتعبات . وإذا سارت الحال في البلقان على النهج الذي تقضى إليه سياسة الدول الكبرى في هذه الآونة ، فأكبر الظن أن حربا بل حروباً أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد ، وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة .

ولقد يدهش الباحث إذ يعلم ان البارود الذي ينفجر في البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ، ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التي يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هي التي تصدر البارود إلى هذه البلاد ، حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ، ونسبتهم إلى الشر والعدوان . والحق أنه لا عيب في هذه الشعوب إلا فقرها المدقع ، وجهلها المروع ، وجبها الملتهب للحرية والاستقلال

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان ، بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول في التخلص من نير الأتراك ، وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الداغمة ، وكانت زوجته أميرة روسية ، وأخته زوجة ولي عهد إنجلترا الذي خلف والدته الملكة فكتوريا باسم إدورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألماني آخر باسم الملك فردينند . وكذلك اختير لألبانيا في أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد الألماني . أما مملكة الصرب ، وهي يوغسلافيا الحديثة ، فهي الدولة البلقانية الوحيدة التي لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة ، ورفعت إلى عرشها أميراً اختارته من بين أسرها العريقة . وكان آخر ملوكها بطرس الثاني الذي نجى عن العرش في سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركي أو الحكم النمساوي مدة تتراوح بين أربعة قرون أو خمسة ، فلما همت في القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال ثم بالتيجان ، حتى إذا ما تنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيتها وظفرت

بالاستقلال السياسى ، بدأت تحس نقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثته زوال الحكم التركى أو النموسى من محيطها ، فراحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب إما داخل حدودها وإما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلامها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ، ثم وطن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعاً — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد .

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الأسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى ؛ فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان ، وما لبثت رومانيا أن تدخلت و تركيا فى الحرب ، فاستردت تركيا أدرنة ، واحتلت رومانيا دبروجة ، وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان ، ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فكان جزاؤها أن حرمت المنفذ الذى طالما مننت به نفسها على بحر إيجه ، كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ، ومن مقدونيا ليوغسلافيا . وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال بعض الشئ فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوروبا عامة ، وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى ، فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى أنقرة ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكجالية . وبذلك أتاحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشؤونها الداخلية ، وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة ، حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحرية كبرى ، فارتفع مقام رومانيا إلى مصاف الدول المهمة ، وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتي موانئ وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان ، وسوت الحكومتان ما كان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى اتبعتها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ، وإنشائه تركيا الجديدة ؛ فقد قرأ رأى الزعيم التركى على

اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جذورها ، وذلك بتبادل الأقليات بينهما ، فتفتح اليونان أبوابها لمليون وربع مليون من الإغريق المتوطنين في تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان وقد فعل هذا التبادل — على رغم ما لاقاه المتبادلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسدية والعاطفية — فعل السحر في تحسين العلاقات بين الشعبين ، حتى أصبحا كأنهما أسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين في سياسة البلقان الجديدة . وذلك أنه ما كادت تختفي روسيا من الميدان السياسي في البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها ، حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا ، فتتشر نفوذها السياسي في ربوع البلقان وشرق البحر المتوسط . وفعلاً بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولكن سرعان ما بانّت نيات إيطاليا التوسعية عندما احتلت جزيرة كرفو التابعة لليونان في سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين ألبانيا وإيطاليا ، وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية في اللجنة التي كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا . وقد تحققت مخاوف البلقان من ناحية إيطاليا عندما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا وألبانيا سنة ١٩٢٦ ، وكان فخواها أن تصبح ألبانيا في حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا ، فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانئ لتنب منها عند الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، ولتستطيع أن تتحكم في مضيق أترنتو عند مدخل البحر الأدرياتي ، فيبقى الأسطول اليوغسلافي الحربي والتجاري تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان ، وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعمد على نفسها ، فإنها ستستمر العوبة في أيدي الدول الكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وجأة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً ، وأنهم قد وصلوا من النضج السياسي إلى درجة خليقة بأن تجعلهم يقفون صفًا واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم . وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعي تركيا واليونان الميثاق البلقاني سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا ولم تشذ إلا ألبانيا وبلغاريا ، إذ كانت الأولى في سياستها تابعة لإيطاليا ، وكانت الثانية

مشاكل البلقان

تطمع في إعادة النظر في معاهدات الصلح، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة في البلقان. وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة؛ ف لأول مرة في تاريخها ووقت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين.

وقد كان الميثاق خير درع لدول البلقان في أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥، فووقت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشي. وكذلك ووقت دول البلقان تناصر تركيا في سنة ١٩٣٦ عندما دعت مؤتمر الدول في منترو ليقرر النظام الجديد للمضائق في مصلحة تركيا. ولكن وأسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية. فالترمت دول البلقان الحيدة في أول الأمر، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب، وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غرباً وشرقاً، فسير قواته من ليبيا ضد بريطانيا في مصر، وتحركت كتائبه من ألبانيا ضد اليونان، فوقف الإغريق أمام المعتدين وقتهم التي استرعت إعجاب العالم. وتحرج مركز المحور في البلقان، فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكتسح دول البلقان واحدة بعد أخرى حتى لم ينج منها سوى تركيا. وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات. وماذا يعنى الميثاق؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أُنقت منه الحرب الحافظة التي حالفت الألمان في سنى الحرب الأولى أى أثر، وهي التي داست الموائيق والمعاهدات، وبددت المحالقات ومزقت الجيوش شرمزق!

وبذهاب ميثاق البلقان وانهاء الحرب، سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحاً لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية. وقد تعقدت مشاكلها في هذه المرة على أثر عودة روسيا أهم السلائية الأرثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة في دور البطولة العالمية. وإذا ما اجتمعت الأمم بفراخها فمسير عليها أن تدع لأحدمنها حرته أو استقلاله، بل إن غريزة الأمومة فيها لكفيلة أن تدفعها يوماً إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم من الأيدي التي تمتد إليهم، ولو كانت تمتد لإطعامهم!

وفي هذه المرة لا تريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فهي تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقاً وصدقاً وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة. وقد نزلت أخيراً عن عداوتها للكنيسة ورجالها، فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التي تنتمي إليها الكثرة العظمى من سكان البلقان. وتريد روسيا أن يكون مقامها في البلقان شبيهاً بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية، مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا على أن تكون وفق نظامها الشيوعي وعلى هواها.

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان؛ ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان في الحرب الأخيرة، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان في التجارة كما كسبتها منهم ألمانيا قبل الحرب الأخيرة، حتى بلغ ما تصدره ألمانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠٪ من وارداتها. ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادي إلا إذا نهضت بصناعاتها وأنتجت مثل ما كانت تصدره ألمانيا للبلقان من عدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة. ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا إذا توافرت لروسيا الأيدي العاملة التي لا يتم تدريبها إلا بعد سنوات طويلة. وفي هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة في البلقان، وإما أن تباها فتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة.

وكما أن روسيا تريد أن ترث، ألمانيا في مركزها الاقتصادي في البلقان، فإنها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وريثة إيطاليا في البحر المتوسط، حتى يصحح التوازن الدولي في حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل. لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها في قواعده الاستراتيجية، فلم تكف بالجلوس إلى جانب إنجلترا وفرنسا وأمريكا في منطقة طنجة الدولية كما تقرر في العام الماضي، بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضائق، ويقولون إنها تطالب الآن بقاعدة حربية في منطقة المضائق، وبقاعد لها في مجلس إدارة شركة قناة السويس، كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل.

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضاً وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة

في مطالبها بضم تريسته ومنطقة فينيزيا جوليا على البحر الأدرياتي ، وقد احتلت منها ميناء فيومي وما جاورها من الأراضى . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزي والهوان في الحرب الأخيرة سيقبل من أمل إيطاليا في الاحتفاظ بهذا الإقليم ، لاسيما أن الكثرة الطليانية في هذه البقاع ليست في الحقيقة إلا كثرة اصطناعية حديثة العهد غير متأصلة في صميم البيئة ، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء الطليان قد اعتنقوا أخيراً كغيرهم من العمال في المدن والموانى في أنحاء أخرى مبادئ الحزب الشيوعى ، وأصبحوا لا يرغبون في العودة إلى الحكم الإيطالى الذى ناوأ الشيوعية في الماضى . وقد أكد مستر بيثن فى خطبته الأخيرة أنه لا مناص من تحويل تريسته إلى ميناء دولى حر للجميع ، تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوروبا الوسطى .

وتهدف حكومة السوڤيت فى مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر الإدرىاتي الموصول للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعى .

وكذلك تقف حكومة السوڤيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها . فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع ألمانيا ، فإن صلات الدم الوثيقة التى تربط بلغاريا بروسيا ، لم تنفصم عراها حتى فى أحلك ساعات الحرب عند ما كانت ألمانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا بتحقيق حامها فى بحر إيجه وفى تراقيا ومقدونيا على حساب اليونان . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل البلشفية من جهة والرجعية من جهة أخرى ، فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية فى البحر المتوسط . ومع أن الأمل كبير فى أن نحتضن اليونان جزر الدوديكانيز ورودى فأكبر الظن أن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك فى أنه إذا انجلت القوات البريطانية عن اليونان بعد استفتاء الشعب فى موضوع الملكية ، فإن النفوذ الشيوعى سيطغى على البلاد ويصبح مصير البلاد مربوطاً بعجلة السوڤيت . لذلك تعتبر مسألة نظام الحكم فى اليونان من أهم أسباب النزاع الدولى الحالى . أما فى رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بسارابيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوڤيت ، وكذلك فى ألبانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برياسة أنور حجة ، بعد أن ألغيت فيها الملكية فى أوائل هذا العام .

